القمندان
في عيون معاصريه

الأمير أحمد فضل بن علي العبدلي الملقب بالقمندان ولد سنة ١٣٠٣هـ، وتوفى عند تمام السادسة مساء غرة شهر شعبان ١٣٦٢هـ، عن عمر يناهز تسعة وخمسين عاماً، كان شخصية متعددة الجوانب، ترك بصمات واضحة في نواحي الحياة المختلفة، واشتهر بين الناس لا باعتباره عالماً وانما باعتباره فناناً يتعاطى كتابة الأغاني وتلحينها، وباعتباره أميراً عزف عن الحكم وهموم السلطة ومشاكلها وتفرغ للفن والأدب، وهو ما ميزه عن سائر أفراد الأسرة العبدلية التي توارثت الحكم لفترة من الزمن في سلطنة لحج.

د. علوي عبدالله طاهر

كان للقمندان أسلوب متميز في كتابة الأغاني وتلحينها، غلب عليها الطابع الشعبي المستوحى من بيئة لحج الفلاحية، وقد نشر له في هذا الخصوص كتاب «المصدر المفيد في غناء لحج الجديد) ويحوي معظم الأغاني التي أبدعها القمندان تأليفاً ولحناً، وقد انتشرت أغانيه انتشاراً واسعاً في عموم اليمن والجزيرة والخليج، وقد غناها كبار المطربين، وما يميز أغاني القمندان عن غيرها أنها ذات صلة بالموروث الشعبي الغنائي، بل هي مستوحاة منه، ومرتكزة عليه، ويرجع ذلك ربما الى الصلة الوجدانية بين القمندان كفنان وبيئته الفلاحية ذات التراث الفني الأصيل، ولعل ذلك هو الذي جعل أغاني القمندان شائعة في أوساط الفلاحين الذين كانوا يرددونها في مواسم الحصاد والبذار، وفي المناسبات المختلفة، وقد أكد ذلك الأستاذ عبدالرحمن جرجرة في الكلمة التي ألقاها في الحفل الذي أقيم بالذكرى الأربعين لوفاته حين قال:

«لا أعرف بالضبط متى دخلات آلات الموسيقى لحج، ولكن الحقيقة التي أمامنا ومتأكد منها أن الأمير أحمد فضل أحد أولئك الذين أدخلوها في بلده، ثم قيض الله لحج بفرقة موسيقى الجيش، وكانت هذه إحدى العوامل التي أنمت من رقة (الأمير أحمد فضل) وصقلت ميوله، ونزعاته الموسيقية المرهفة، فلقد استمع الى بشارك الأتراك، والى أغاني أم كلثوم القديمة، والى الأسطوانات العربية والحديثة، وأصغى بأذنيه الحساسة الى أغاني بلده الشعبية في الحقول والمنازل والأزقة، فأخرج لنا من كل هذا مزيجاً، بل زبدة من الغناء السهل، والموسيقى الراقصة، ما أعجب أهله في القصور، والاهالي في البيوت، حتى الفلاحين في أوكارهم وفي الأطيان، فطربت النفوس لهذه الموسيقى المرحة كالرومبا الحلوة، وغنت الأمة رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً له.

وكان القمندان قد تعرض للنقد واللوم من قبل بعض معاصريه الذين لا يروقهم تعاطيه الفن والغناء، معتقدين أن ذلك يحط من قدره عند العامة باعتباره أميراً، وأن ذلك مخالف للدين، فرد عليهم بكتاب أسماه «فصل الخطاب في إباحة العود والرباب) لغرض تبرير تعاطيه الفن واشتغاله بالموسيقى والغناء، وحاول فيه التأكيد على جواز التعاطي مع الموسيقى، مستعيناً بما كتبه النويري في كتابه (نهاية الأرب في فنون الأدب)، وهو من مؤلفي القرن الثامن للهجرة.

وكان النويري قد عرض الرأي المتشدد في الغناء والرأي المبيح له، لكن القمندان لم يأخذ في كتيبه أنف الذكر إلا الرأي بالإباحة، لذا لقي استهجاناً من بعض علماء الدين في عدن، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن سالم البيحاني، وكان البيحاني قد تزعم حملة الهجوم على القمندان منتقداً إياه آخذاً عليه أنه لم يعن في كتيبه (فصل الخطاب) بإثبات أحاديث الاباحة وتفنيد أحاديث التحريم التي كان النويري قد أسهب فيها، في حين أن القمندان التقط من الأحاديث ما يثبت به قوله ويزكي رزيه.

وكان البيحاني قد نشر رسالة صغيرة يرد فيها على ما ورد في كتيب القمندان (فصل الخطاب) وأسماها (شفاء المصاب من لسعات العود والرباب) وفتح به جدلاً واسعاً حول مسألة الموسيقى والغناء، أهي حلال أم حرام؟ ولم يكن البيحاني وحده هو

الذي رد على (فصل الكتاب) بل شاركه في ذلك آخرون، منهم رجل اسمه الشيخ الهندي، الذي كان هو الآخر قد نشر كتيباً صغيراً رد فيه على فصل الخطاب.

ومما زاد على شراسة الحملة على القمندان من قبل علماء الدين تلك القصيدة التي نشرها في ذيل كتيبه (فصل الخطاب) والتي قال فيها:

ياعود قل من ذا الذي
حرمك من الأوائل والأواخر
ومن إذا أتيت لا يفهمك
إلا الذي في الذوق قاصر
غني فإن العود حقاً حلال
إلا إذا ساء استماعه
وليس في التحريم إلا الضلال
إن كان للترويح ساعة
لا تعتبر قط ولا تنتمي
لا بالبخاري ومسلم
لا العسقلاني ولا الهيثمي
فإن عند العقل فصل الخطاب.

وهناك من معاصري القمندان من رد عليه شعراً منهم الشاعر عبدالمجيد الأصبح، ومن ذلك قوله:

يا راكباً من الغرور الذميم اركبه
ما شئت ارتكاب الرجيم
فإن عظم الطيش وأه رميم
الى سحيق الجهل بئس المآب
أنكرت ما للبخاري وما
لمسلم من مركز في السما
أهل الملاهي غير أهل الحديث
والطيب الطاهر غير الخبيث
والصيد للمغوار لا لليث والباز
لا يجري مجاري الذباب

غير أن الخلاف في الرأي والرؤية لم يغير من الود قضية، فهذا الشاعر عبدالمجيد الأصبح الذي كان قد اختلف مع القمندان في بعض المواقف إلا أنه عند وفاته أشاد به أيما إشادة في قصيدة الرثاء التي ألقاها في الاحتفاء بالذكرى الإربعين لوفاة القمندان، قال فيها:

نح عن نفسك يا عصر الأذى
بعد أن خلاك ذو الرأي النجيب
أحمد الفضل ابن فضل إذ الى
عالم الحسنى سرى غير كئيب
ودع الدار الخيالي عيشها
للتي تهدي الى الخلد الخصيب
جازها الشعر من أخلاقه
بجناحين الموشى والنسيب
همة من عبدلي لم تدع
لعُصام في النوادي من نصيب
عرفته العوب قيلاً رافلاً
من ذوي الآداب في ثوب قشيب
باسماً هشاً لمن قابله
فهو والبشر قريب من قريب
كان أعلى مثل في قومه
للأمير الحازم السامي النقيب
تعجز الأيام أن تأتي له
في حماة الراقيين بضريب
ذكره في كل ربع إن جرى
خلت عصراً فاح من روض عشيب
إن للأبطال عمراً خالداً
ليس للموت إليه من دبيب

تدل هذه الأبيات على مكانة القمندان بين معاصريه، واعترافهم بتميزه عنهم، وإشادتهم بدماثة أخلاقه وحسن سلوكه، وذلك ما صرح به وأكده احمد محمد خليل وهو ابن وكيله في عدن، فقد قال معترفاً بفضله عليهم:

«نحن أبناء محمد خليل عرفنا الأمير محمد فضل منذ كان والدنا وكيلاً له في عدن، وكان شديد العطف علينا، كثير التواضع، جم الحياء، ميال الى البساطة، ومما كان يتصف به سموه علو الهمة، وشرف العاطفة، وليونة الجانب، وبشاشة الوجه، ورباطة الجأش، والثبات على المبدأ، وحب الخير والسخاء والشجاعة المتناهية، والاستهانة بالمخاطر، والديمقراطية التي لا حد لها» (صـ٦٠).

وقد أشاد الأمير علي عبدالكريم في كلمته التأبينية للقمندان بما كان يتحلى بها من صفات أخلاقية سامية، فقال في وصفه:

«إنه كان شخصية فذة في نوعها، تمتاز بما تحويه من صفات مختلفة متشعبة، شخصية نالت احترام الجميع، وحب الجميع، ورضا الجميع، شخصية أقل ما توصف به قوة التفكير وصفاء السريرة، وحسن النية، والصداقة الوفية، ونكران الذات، وحب الخير،والسعي المتواصل، والكفاح الدائم..

كانت حياته كلها جد، كلها اجتهاد، وكلها جد، وكلها كدح، يرى الراحة في التعب، ويجد اللذة في اقتحام الصعاب، كان شعلة من النشاط لا يكل ولا يمل، واسع الآمال، بعيد الهمة، لا يحول دون مرامه حائل مهما عظم، ولا يعوقه دون غايته عائق مهما كبر، همة قعساء، وعزيمة ماضية» (صـ٦-٧).

وأكد الشاعر علي محمد لقمان على هذه الصفات في قصيدة الرثاء التي ألقاها في حفل تأبينه، والتي قال فيها:

قد عرفناه لوذعياً جواداً
وبلوناه مشرقياً صقيلا
وسمعناه شادياً بالأماني
ملهماً رتل العلا ترتيلا
من لحون الحمام أشجى غناءً
فوق أفنائها وأسمى هديلا
في قوافٍ تعيد فينا (زُهيراً)
وأغانٍ تُعيد فينا جميلا
ومعانٍ سرت كأنفاس ليل
في ربوع السماء عرضاً وطولا
وخيال يرد للعرب الغرباء لو يسمعون عزاً أثيلا
ورشاد إذا تحيز سار
في دياجي الحياة كان الدليلا
ورأيناه صارماً في يد الحق
على رأس خصمه مسلولا
ولقينا لديه جود محب
لم يكن في الهوى الشريف بخيلا
وسألناه والرجاء يغني
فسألنا المفضل المسؤولا

(صـ٣٤).

وربما لهذه المزايا والصفات التي اتسم بها، تحدث عنه الأستاذ/محمد علي لقمان، قائلاً:

«وإني أشعر في قرارة نفسي أن حياة الأمير أحمد فضل قد نقشت على صفحات قلوب المعجبين بذكائه، وبتوقد ذهنه، وبفرط إنسانيته، وبشغوف حسه، وبرقة فنه، وبنشاطه الانساني والاجتماعي، وبعمله المتواصل في حياته في حقل الجهاد القومي والوطني، ولسوف توحي حياته الى أبناء هذا القطر الشعر الخالد والفن الخالد والعمل المثمر» (صـ١٠).

وفي كلمة للأستاذ صالح دبا قال فيها:

«ولقد حدثنا التاريخ عن رجال نالوا مراكز عالية بين الأمم لما قاموا به من إصلاح ومساع مشكورة، فسيطرت أعمالهم على الأفئدة والقلوب، وفقيدنا يعد في مقدمة هؤلاء الرجال، فقد خدم بلاده وقومه، خدمات تجعله حقيق بالمكانة الرفيعة والمقام الأسمى الذي أحتله، أحب العلوم والفنون بأنواعها فنبغ فيها، عشق التاريخ فظهرت مقدرته فيه، فألف كتابه الذي أصبح مرجع الباحث وبغية المدقق، هوى الشعر والأغاني فبرع فيهما، ونال إعجاب الجميع،وصار يتغنى بأغانيه وأشعاره الصغير والكبير، وكان يفرح لفرحهم ويتألم لآلامهم، رأى حالة الأمم الغربية وماهي عليه من التقدم والعمران فأعجب بهم، ورزى حالة الأمة العربية وما هي عليه من التأخر والشقاء، فتوجع عليها وقال: (صـ٣٠)

من لقحطان وعدنان الى الـ
مجد داع بالهدى في الناس من؟
امة المختار والهفي لقد
خيم الجهل عليها ودفن
إن قلبي لم يزل في أضلعي
كلما حبس شقاء العرب أن

وأشار صالح دبا الى بعض مواقف القمندان أن اسجاعه في بعض المعارك التي خاضها باعتباره عسكرياً، وقائداً لجنودها فقال في وصفه:

«لقد جهزت حملة لتأديب القوم وكان (القمندان) قائدها، فذهب وأدى مهمته خير أداء وعاد ظافراً منصوراً، وقد عامل جنوده معاملة حسنة، معاملة جعلتهم يتفانون في طاعته، ويعجبون بشهامته وشجاعته، فما استأثر بشيء دونهم، ولا استباح لنفسه ما لم يستبحه لهم، شأن القائد الخبير» (صـ٣٠-٣١).

وفي كلمة للأستاذ محمود علي ابراهيم لقمان قال فيها:

«وكما أن القمر وحيد بين الكواكب بنوره وسناه وروعته وجلاله، نولع به، ونهتدي بضيائه، نستلهمه الشعر فيبعثه حياً، والنغم فيرسله أنشودة خالدة، فكذلك كان الأمير أحمد فضل ذو الشرف والعنصر الطيب الرفيع، معدن العز الصميم، وذو الأصل الراسخ الكريم صاحب الأصل الشامخ والمجد الباذخ، والحسب الشامخ كذلك كان (رحمه الله)نسيج وحده فريداً بين أدباء لحج وجاراتها الشقيقات بعلمه وفنه وسعة مداركه ورحابة صدره، فولع به الناس وقدروا أدبه وفنه، وأعجبوا بشمائله وسجاياه» (صـ٤٩).

وفي كلمة للأستاذ فضل عوزر جاء فيها:

« حياة الأمير (أحمد فضل) كلها طموح وثابة نحو العلا والمجد، فكان واسع المدارك كثير الآمال، ذو مبدأ واحد، اعترضته عقبات كأداء كانت أن تفل من عزمه الجبار، ولكنه لم يتزعزع من ذلك بل وقف وقفة المعتمد الواثق بنفسه، وتجلد بالصبر، وكرس حياته لنسيان حب الذات في سبيل المجموع، كل هذا مما بعث في روحه حب الاستطلاع الشديد، وزيادة روح البحث والتنقيب لتلك الآمال الجسام التي تضطرم بها نفسه، ويتمنى تحقيقها في أسرع وقت، وبالفعل حقق أكثرها لولا أن عاجلته المنية فحالت دون ما يبتغيه ويرضاه فقد كان المؤلف وكان المؤرخ وكان الشاعر المبدع والكاتب النير وكان المزارع النشيط والمرشد العام لوطنه وقومه الى جانب هذا كله أراد أن يمزج بين غذاء العقل بغذاء الروح فأطلق لخياله العنان وألف القصائد الغنائية ولحنها فسما في عالم الفن والتجديد، فكانت لعظمة الحانه الرخيمة أكبر الوقع في اهتزاز المشاعر وادخال البهجة والسرور الى القلوب حتى أجبرت الصغير والكبير بأن يغني ويترنم بها، مما جعل له عظيم الأثر في قلوب حفظت له الود وصنع الجميل» (صـ٥٣-٥٤).

ولا تختلف هذه النظرة لشخصية القمندان عن نظرة الشاعر علي محمد لقمان الذي قال في وصفه:

كان زين النفوس أمضى شهاباً
من نجوم السماء واسنى قبيلا
كان فخر البلاد في زمن أضحى
به الفخر بالرجال قليلا
كان وحي القلوب في أمة فيها
كفاح القلوب ظل ضئيلا
كان عن كل عامل صادق المسعى
إذا ذمه اللئيم وكيلا
كان في الناس منصف الحر
بالحمد لما يفعل الهمام كفيلا

(صـ٣٤).

وعن ريادته في تأسيس النهضة الحديثة في لحج تحدث الأستاذ حسين منعم قائلاً:

«والفقيد أحمد فضل أول من أسس جيش لحج، وتقلد زعامة هذا الجيش، فأوجد الأمن وأوجد النظام وأول الساعين في الحركة الأدبية بلحج، وعدن وأول من ألف تاريخاً عن لحج وعدن وكان قد أهمله المؤرخون قروناً فخدم التاريخ والوطن خدمة جليلة لا تمحو فضلها الأيام» (صـ٦٣).

وفي هذا القـــول إشـــارة الى اسهامات القمندان في مجالات الحياة المختلفة، والتي كان رائداً في بعض مجالاتها، فهو أول من ألف كـتـبـاً في تاريخ لحج والمعروف باسم (هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن) وأول من الف كـتـابـاً في الأغـاني اللحجية واسمه (المصدر المفيد في غناء لحج الجديد) وأول من أسس النوادي الأدبية والثقافية في عدن ولحج، فهو مؤسس (نادي الأدب العـربي) عـام ١٩٢٥م.. بالاضافة إلى اسهامه في تأسيس الجيش اللحجي، كل ذلك اكسبه مكانة رفيعة في مجتمعه وكان مجلسه في بستان الحسيني ملتقى لرجال الفن والأدب وهو مـا أشـار إليـه معاصره الأمير/صالح مهدي في قصيدة الرثاء التي القاها بالذكرى الأربعين لوفاته، قال فيها:

أرسلي الدمع عيوني واسكبي
بدل الدمع إذا جف دمي
مات رب الشعر اين الشعراء
يندبوه بلسان القلم
مات من أحيا في لحج الغناء
فاذكروه بالغناء والنغم
مات شيخ العلم أين العلماء
ياخذوا من حكمه والحكم
مات من قام الحسيني والربى
في العرائس أحيا ذكر القدم
مات من انشأ لنا الجيش الفتي
مات راعي العز حامي العلم
فيلسوف زارع حر أبي
يأبى كأس الظلم حتى لوظمي.»

ص ٦٤»

وكان القمندان ذا مواهب متعددة استطاع بها ان يكسب موقعاً متميزاً في مجتمعه وحظوة رفيعة في مجلسه، فكان يدخل السرور إلى جلسائه بحسن حديثه وحلاوة عباراته وجمال شعره وروعة أغانيه وهذا ما أشار إليه معاصره الأستاذ/صالح عبدالله في قصيدة الرثاء التي ألقاها في حفل تأبينه، قال فيها:

يامرسل الافراح نحو نفوسنا
ومكفكف الدمع السخين إذا انهمر
يابلبلاً غنى فأطرب سامعاً
من لحنه وقصيده حتى الحجر
قد كنت ترضي بالسرور نفوسنا
واليوم نبكيها إذا ناح الوتر
أحدثت والله فراغاً في العلى
بين رجال العلم أصحاب الفكر
قد كنت عضواً صالحاً تحتله
تبدي به الرأي السديد لمن شعر
لغة القلوب عليك تندب حظها
وإذا ادلهم الليل يفتقد القمر
لك في القلوب محبة عظمى ترى
من للأحبة لت عمرك ما قصر

« ص٥- ٢١»

وهذا ما أكده الشاعر عبدالله هادي سبيت في قصيده الرثاء التي ألقاها في اربعينية القمندان والتي قال فيها:

دهمت لحج بالمصاب ولابدع
فموت العظيم شر الدواهم
ان بعض الخطوب ما ينسه الدهر
وبعض الخطوب للظهر قاصم
اأ عزي العلوم أم هل أعزي
من يريد الفنون هاو وغانم
ذهب المرشد الذي كان نوراً
في الدياجي لكل حيران هائم
ذهب العادل الذي كان في الار
ض عدواً لكل باغ وظالم
ذهب الزارع النشيط ومن كا
نت أياديه تحكي خير المواسم
فإذا قيل في القعود نعيم
قال: كلا ففي النشاط المغانم
لم يكن مكرهاً على السعي لكن
كان في حاجة لبذل الدراهم

« ص٤١»